أناشيد الطريق والفضيلة

الشوق

أناشيد الطريق والفضيلة

تراث واحد

لاو تسو

أناشيد الطريق والفضيلة

LAO TZU

TAO TEH CHING

يراه الرحيم فيصفه بالرحمة ،
ويراه الحكيم فيصفه بالحكمة ،
ويعيش به الناس من يوم إلى يوم ،
لكن الحكماء قليل .

كتاب التحولات والمصائر I Ching

المُحْتَوَيَاتُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَمْهِيدٌ

تعمل ترجمات ‹تراث واحد OneTradition Books› على نقل أدبيات الحضارات العريقة فى الشرق والغرب إلى اللسان العربى، إلى الذين تسمح ذائقتهم بالاستمتاع بأعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى وجلال الدين الرومى وغيرهما، ويجدون سعادتهم فى قراءتها، وقد حضَّنا الرسول الكريم ﷺ على طلب العلم فقال «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» وقال «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا». وتعتبر الأعمال التى نقدمها مفتاحا لفهم الحضارات الهندوسية والطاوية والبوذية واليونانية القديمة، من حيث جوهرها الذى تجلى الله تعالى به عليهم.

مُقَدِّمَة

الكتاب والكاتب

‹أناشيد الطريق والفضيلة› هو متن صينى قديم يشتمل على تعاليم روحية وحكمة شعبية وآراء سياسية وشذرات من علم الكون ونظرات فى الطبيعة ودحض لمذهب كونفوشيوس ورؤى أسرارية من الطاوية القديمة. وقد صيغ شعرا على غرار الأدب التراثى الذى سبق عصر لاو تسو، وتناوله حكماء الصين بين القرنين السابع والثانى قبل الميلاد حتى صار سبيكة لحكمة أجيال منهم.

ويُروى أن لاو تسو كان يتبع الطريق والفضيلة، أى الحكمة العلية والتعبير السلوكى عنها، فى زمان كونفوشيوس فى القرن الخامس قبل الميلاد، وتركزت تعاليمه فى التواضع وإنكار الذات، وكان فى أواخر حياته أمينًا للسجلات الإمبراطورية، وقد استشعر سقوط الإمبراطورية الوشيك، فجمع أغراضه وارتحل مهاجرًا فى عربة يجرها ثور، وعند مروره من بوابة

الغرب استوقفه الحارس يين هسى الذى أدرك أن هذا الحكيم الجليل على وشك أن يترك العالم، فقال له «سيدى، إنك قد زهدت هذا العالم، فأرجو أن تكتب لى كتابا قبل أن ترحل»، ونزل الحكيم العجوز من عربته وأخذ أقلامه وأحباره وجلس يكتب كتابا من جزءين فرغ منه فى ساعات، وأعطى يين هسى الكتاب الذى احتوى على خمسة آلاف كلمة أو يربو قليلا، ثم تابع هجرته إلى الغرب ولم يُعرَف له مصير بعد ذلك.

وأيًّا كانت معقولية هذه الرواية فإن فيها سحرًا رمزيًّا يتسق مع روح الطريق والفضيلة، فقد أُعطيت الأناشيد إلى حارس بوابة الغرب، وهو ما يرمز إلى فتح أبواب الفهم، كما أنه يرمز إلى نقطة تحول فى حياة الإنسان. وقد وُهبَ هذا الكتاب لقاء طلب ساذج، وهو ما يقطع بكرم الحكيم الذى أفاض بمعرفته عند طلب بسيط، وقد كتب لاو تسو هذا الكتاب فى جلسة واحدة، وهو دليل على حسمه ومثابرته. وتصوره أعمال التصوير القديمة وهو يهبط من عربته التى يجرها ثور، ثم رحيله إلى الغرب الذى يرمز إلى أن تعاليمه عن الطريق والفضيلة تعاليم كلية موجهة إلى العالم أجمع، وهى حقيقة نشهدها الآن.

ولم يحظ فى الغرب كتاب طوال التاريخ المكتوب بما حظى به كتاب أناشيد الطريق والفضيلة، فقد بدأت ترجمته إلى اللغات الأوروبية منذ القرن الأول قبل الميلاد، وبلغت ترجماته

فى اللغة الإنجليزية وحدها ما يربو على ثلاثين ترجمة. وقد قيل إنه أوسع الكتب انتشارًا فى العالم الغربى بعد الكتاب المقدس، وبنيت ترجمة تراث واحد على عدة ترجمات إنجليزية له.

عن ترجمة الشعر

إن كل ترجمة هى مجرد ‹نسخة› من العمل المترجم وليست العمل نفسه، وتقترب النسخة من ‹روح› العمل الأصلى بمقدار ما يستطيع المترجم أن يمنح للروح ‹صوتا› جديدًا فى بلاد جديدة، وبمقدار وعيه بعادات قارئه ومعهود فهمه لتراثه اللغوى والروحى، ويقدم المترجم فى أفضل الأحوال ‹نسخته› إلى القارئ على أمل أن يتذوق فيها تجربة أدبية مقاربة، تحرك فيه شيئًا من الأفكار والمشاعر التى دعت إلى ظهورها بين أقوام آخرين، ونحن نقدم نسختنا هذه إلى ‹القارئ› لا إلى الدارس والمحقق، فلا نفع فى الدراسة والتحقيق بلا قُرَّاء.

ويقول جوناثان ستار فى مقدمة كتابه[١] «إن كثيرًا من

١- Lao Tzu. *Tao Te Ching: The Definitive Edition*. Translated by Jonathan Star. New York, Tarcher, 2001.

النسخ و‹الترجمات› لـكتاب لاو تسو قد صـاغها كُتّاب لا يعرفون الصينية، وقد لجئوا إلى خلط النسخ المتاحة، أو إلى ترجمة حرفية مثل التى أصدرها بول كاروس عام ١٨٩٨، أو ‹استشعار المعنى الحقيقى› ثم كتابة مقطع جديد على أسـاس ‹الشعور›، وقد اقتربت كثير من هذه الترجمات من المعنى وتميزت بشـاعرية قوية، إلا أن هناك ترجمات شطحت وحادت عن المعنى، وأحيانًا ما حذفت فقرة كاملة. ويسهم المترجم بشعره هو الذى استلهمه من ‹روح› المتن، وربما كانت هذه الترجمات مفيدة وكان منهـا ما تميز بقوة شـاعرية إلا أنها لم تكن سوى ‹شطحة شعرية› بقصـائد ‹عن› أناشيد الطريق والفضيلة وليست ترجمة لهـا».

وقد كان من نصيب الشعر أن يصير رسولا للحكمة الأولانية، فلم تخل حضـارة تراثية من شعر أيًّا كان زمانها ومكانها ولغتهـا، واللغة هى العقل، والعقل هو الإنسـان، وقد تكاثرت اللغات بموجب تنائى البلاد والأقوام قبل أن يصير العالم ‹قرية صغيرة› كما يقولون، وبقى العقل هو العقل فى كل زمان ومكان فى تلك ‹القرية الصغيرة›، وقد يهتدى ذلك العقل إلى باطنه الحق بالوعى بالوجود، وقد يضل فى ظاهره الوهمى فى عالم اللهو والـكثرة والتعدد، وتبدو هذه المتون على شىء من السذاجة، ولـكن الإنسـان الذى عاش فى زمنهـا لم يكن ألمعيًّا

ولا محتاطًا بقدر ما كان مباشرًا وبسيطًا، ولا يفتأ الإنسان الألمعى الذكى الحديث يفتقد تلك البساطة وذلك النقاء كلما دارت به الدنيا فى تلافيف العصر الحديث وهديره على الأرض، يرفع بصره خلسة إلى السماء تساؤلا ورجاءً بحثًا عن خلاص نفسه وخلود روحه.

ومن البديهى أن جميع متون الحكمة التى ظهرت فى كل الأديان عبر أزمنة سحيقة القدم، قد صيغت لعقل شفاهى لتسهيل استظهاره بالإيقاع والوزن، وقد اقتصر تداول محرراتها على القليل من الحكماء، أما العالم الحديث فقد لجأ إلى تحقير شأن ذلك العقل الشفاهى لزهوه بالكتابة والقراءة التى تكاثرت باطراد منذ القرن السادس عشر حتى صارت وباءً تكاثر فيه مُدَّعو الحكمة وقل فيه الحكماء، وأطلق ‹الزمان› على من لا يتعاطاهما ‹أميًا› على سبيل البخس، وأقام الحملات القومية لمكافحتها، وتباهى بمحوها، فانتقلت مادة العقل فى الأجيال اللاحقة من الوجود المتعين إلى النظرية الافتراضية، وليس هنا مقام المقارنة بين القيمة الحقيقية للعقلين الشفاهى والتحريرى، ولكن غايتنا من هذه الملحوظة مقصورة على بيان أن الأشكال الأدبية التى اتخذتها الحكمة كانت شعرًا وأمثالا وكنايات يسهل حفظها، وكانت تطبيقاتها سيرًا وحكايات يحلو سردها، وتعتمد الأولى على

تكثيف التعبير وتركيزه ونظمه وإيقاعه، وتعتمد الثانية على السرد الملحمى والدرامى الذى تنتثر فيه الحكمة لتضفى عليه مذاقًا وأريجًا، وليس من الصعب تصور فعالية كل منهما فى مجتمع متوحد، فالحكمة كالسَّداة التى تربط اللُّحْمة حتى تصير نسيجًا ثريًا من الفنون، ولكن مجريات الحداثة لم تعد تتطلب ذلك التوحد بقدر ما تدعو إلى الفردية والخصوصية والاختلاف والتناحر والتنافس والطموح، وصار اختلاف التضاد أمرًا محتومًا ينتهب الحياة ذاتها فى خفية عن الأحياء، بعد أن تغيرت مسمياتها.

وليست هذه الحملة على أساليب وطرق الترجمة السائدة أمرا مطلقًا بالطبع، ولكن يصعب نقضها إلا بسلطان تجانس روحى وثقافى ندر أن يتوفر بين حضارتين، وعبقرية شعرية مخصوصة ندر أن توجد فى شاعرين، ناهيك عن لغتين أو أكثر، وربما كانت ترجمتا رباعيات الخيام من الفارسية إلى العربيــة عند أحمد رامى، وإلى الإنجليزية عند إدوارد فيتزجيرالد، حدثين تاريخيين لم نسمع بمثلهما قط، اللهم إلا فى بعض شذرات تُرجمت شعرا إلى العربية من أعمال جلال الدين الرومى أو فريد الدين العطار، فكلاهما شعرٌ بشهادة أهل المترجم الشاعر من عرب وإنجليز، ونضيف إن رباعيات الخيام وصاحبها فيلسوف وفلكى كانت مادتها نسيجًا من

أفكار كلية تواترت فى كل لغات العالم طوال وجود الإنسـان على الأرض، ودارت حول أفكار بسيطة وجوهرية لا تتغير بتغير أحوال الزمان والجنس والثقافة واللغة، وتتناول تسـاؤلات الإنسـان عن غاية وجوده وأفكاره التى لازمته فى كل الحضـارات واللغات، أى إنها تجلت فى حقل الأفكار الكلية أسـاسًـا ولم تتناول الخصـائص التى اتسمت بها الأحاسيس والانفعالات والعادات التى كانت مادة الشعر الجاهلى وجسده، وعلى ذكر الشعر الجاهلى، فقد كانت ترجمة جوته لقصيدة ‹إنَّ بالشِّعبِ الَّذى دُونَ سَلْعٍ› لابن أخت تأبط شرا قصيدة بمفهوم الألمـان للشعر، ولـكنهـا ابتعدت عن روح التغنى فى بداوة الجاهلية حتى إنه اقترح لهـا ترتيبًا آخر لأسباب تتصل بالمعايير الغربية لمـا سُمِّى ‹وحدة القصيدة›، والذى حاول أن يتغياه بعض المتغربين من ‹شعرائنا› على سبيل الحداثة والتطور.

وحين تكون المعانى التى تجبرنا جبرًا على ترجمة شعر من قبيل الحكمة وهى ضـالتنا، فلا مناص من أن نلتزم بالدلالة على بسـاطتهـا الجوهرية فحسب، ذلك لو أفلحنا فى فهم أصلها بشكل أكمل، واستيعاب الأبعاد الروحية التى انبثقت منهـا على وجه أصحّ.

وهكذا نجد أنفسنا مجبرين على التزام المعنى أولا،

والتعبير عنه فى صيغة نثرية ثانيا، افتقارًا إلى حل أمثل كما أسلفنا. والإنسان هو الإنسان فى عرضيته وجوهريته وفى تعقيده وبساطته، وما نحن إلا سبيكة منها جميعًا، وما علينا إلا أن نقول مع بورخيس «إن ترجمتنا ليست حرفية، ولكنها أمينة». والله من وراء القصد، وله الشكر والحمد.

عن فكرة اللاشىء فى الطاوية

إن من أعمق مفاتيح الحكمة القديمة فى الشرق الأقصى هو فكرة ‹اللاشىء›، وربما كانت هذه الفكرة من أعقد الأمور فى الفلسفة الحديثة المحصورة فى المادة، ويقول الشيخ عيسى نور الدين «إن اللاشيئية هى لغز الميتافيزيقا الأوحد، ذلك أنها لا شىء إلا أنها موضوع للفكر» ولكن الحكمة تعلو على المنطق الفلسفى فى اعتمادها على الرمز، فتصنيف المعانى فى الإسلام مثلا يبدأ من تقسيم العوالم إلى عالم الغيب وعالم الشهادة، وهو تقسيم جامع لا يترك شيئًا فى العوالم إلا احتواه، فعالم الغيب هو ما لا ندرك ولا نعلم مهما كانت الصور التى تداولها التراث لمعرفة تقريبية، وهى بكل المعايير ‹لا شىء› قياسًا إلى حقيقة اللانهائى الذى لا قرار له

ولا حدود حتى من منظور الأبعاد الفلكية وعلم الطبيعة رغم أن كليهما ‹كمِّىٌّ› بطبيعته، إلا أن الفلسفة تنكر المعنى الروحى رغم ذلك، ولا يسلم به إلا علماء الدين الذين يعمل وعيهم بالرمز لا بالكمِّ فحسب، وعالم الشهادة هو عالم الفعل والجزاء العاجل، ومحكوم عليه بالقوة أو بالفعل أن ينصاع لمبادئ عالم الثواب والعقاب الآجل، أى الغيب. أو قل هو امتداد الإنسان فيما وراء الحياة عندما لا يبقى منه ‹شىء›.

ويمكن أن تُعَدَّ فكرة اللاشيئية فى الشرق الأقصى إذًا كما لو كانت تطبيقًا إجرائيًا فى نطاق اللغة التى صدرت فيها لفكرة الغيب فى الأديان السامية. وقد كانت فكرة ‹العمل بلا فعل actionless action› من روافد وتطبيقات هذا المبدإ المركزى. ويصور كتاب الطريق والفضيلة طبيعة الطاو ولانهائيته وأثره المباشر على السلوك الإنسانى.

كتاب الطريق

١

يمكن الحديث عن طريق الطاو ولكن ليس عن ‹الطاو› الخالد، ويمكن إطلاق الأسماء على ما يظهر، ولكن ليس على ما هو سرمدى خفى، فلا اسم للطاو لأنه أصل السماء والأرض، أما الموصوف فهو ‹منبت› كل شىء كان. طهِّر نفسك من الرغبة حتى تجتلى أسرارهما، ولكن دع نفسك ترغب حتى تراقب تجلياتهما، فهما واحد فى الحقيقة ولكنهما قد تشعبا فى الأسماء، بين ما يوصف وما لا يوصف، فلا مناص من أن نبحث عن جوهر ذلك النبع الخفى أبدًا، ونتأمل آيات وجوده فى دوام تجليه، عندما يفيض الخفاء والظهور تباعًا من النبع ذاته بأسماء شتى يبقى كلاهما سرًّا مغلقًا وراء باب جوهرهما الواحد سر الأسرار.

٢

لو أن العالم كله اتفق على الجمال لكان عين القبح، ولو اتفق العالم كله على الخير لكان عين الشر، يتوالد الشيء واللاشيء أحدهما من الآخر، فيكمل كل من الصعب والسهل صاحبه، ويصف كل من الطويل والقصير رفيقه، ويقيس كل من العالى والمنخفض شقيقه، ويُجلى كل من الصوت والنطق أليفه، ويتبع كل من القبْل والبَعْد وليفه، وعلى الحكيم أن يدبِّر أعماله بلا جلبة، وينشر تعاليمه بلا مواعظ، وألا ينكر حقًّا للمعطيات العارضة من الأمور، يرعاها ولا يدَّعى امتلاكها، ويتم أعماله ولا يكتنز لنفسه منها، وينجز مهامه ولا يعيش على لوْك ذكراها، ولأنه لا يعبأ بذكرها فلن يحرمه منها أحد.

٣

الامتناع عن تمجيد الموهوبين يكفُّ الناس عن التنافس والتناحر، والامتناع عن إضفاء قيمة على السلع النادرة يكف الناس عن السرقة والنهب، والامتناع عن استعراض المغريات يؤدى إلى استقرار القلوب فى سكينة، ولذلك يبدأ حكم الحكماء بتفريغ القلوب من الرغبة، ومنع الأذكياء من الثرثرة، وإشباع البطون من الجوع، وتهدئة الطموح من النزوة، وشد القامة من التهافت، حتى يفرغ الناس لأعمالهم دون أفكار تؤرقهم، ولا رغبات تتناوشهم، وعلى الحكيم أن يتمسك بالسكينة كى يستقر كل شىء فى نظامه الطبيعى.

٤

الطاو وعاء لا يمتلئ، فهو عميق الغور حتى إنه يبدو منبع الأشياء جميعًا، يثلمُ كل حادٍ ويفكُّ كل مشتبك، ويهدِّئ كل مُبْهِر، ويصهرُ العالمَ فى وجودٍ واحد، ويبقى خفيًّا باقيًا إلى الأبد، ولا علم لنا بمن أنجبه، فهو الجد الأول لكل شىء، فسر واثقًا على الطرق القديمة التى مهدتها الحكمة.

٥

الوحدة التى وراء السماء والأرض لا تبالى، فهى تعامل كل شىء كالدمى[٢]، كما أن الحكيم لا يبالى، فهو يرعى شعبه بلا انفعال. ثمة صيحة تتردد بين السماء والأرض تقول: الكون خاوٍ، ولكنه فيّاض بكل شىء لا ينفد، وكلما زاد عمله زاد إنتاجه، وليس هناك من كلمات يمكن أن تفسره إلا الصمت، وأقرب لك أن تبحث عنه فى قلبك.

٢- يقال إن دمى الكلاب المصنوعة من القش كانت تعامل باهتمام بالغ قبل أن تقدم قربانا، وبعد انتهاء مهمتها، تهمل وتداس بالأقدام، والأقرب إلى المعنى فى الطقس هو مشاكلة طور الرعاية فى الطفولة أو التكوين، يتبعه طور الترك فى البلوغ حتى يتحمل مسئولية الحياة.

٦

روح النبع أبدية لا تموت، تُدعى الأم الغامضة، نقابها منبت السماء والأرض، ينسدل كنسيج شفاف لا يكاد يفصح إلا عن لمحة من الوجود، ولا تفرغ مهما نهلت منها.

٧

تعيش السماء طويلا كما تبقى الأرض، فما سر دوامهما؟ أليس ذلك لأن مددهما ليس قاصرًا على نفسيهما فحسب بل هو مدد لكل المخلوقات؟ وكذلك الحكيم يرغب أن يظل وراء الركب، ولكنه يجد نفسه فى المقدمة، ويتحسس نفسه عجبًا، ولكنه يجد أنه سليم معافى، ألم تتحقق ذاته لأنه تخلى عن ذاته؟

٨

الخير الأسمى يشاكل الماء، فالماء يعرف كيف يغذى كل شيء دون مناجزته، حتى إنه يركد فى مواطن يعافها الإنسان، لذلك تقترب طبيعته من الطاو، فحين تختار منزلا فالموقع هو الأهم، وحين تثقف عقلك فالغوص فى أعماقه الخفية هو الأجدى، وعندما تسلك طريقًا فتعلم كيف تكون لطيفًا عطوفًا، وعندما تتكلم فتعلم كيف تكون فصيحًا، وعندما تحكم فتعلم كيف تحافظ على النظام الطبيعى، وعندما تعمل فتعلم كيف تثابر، وعندما تتحرك فتعلم كيف تختار اللحظة المناسبة، ولو تجنبت الصراع مع الغير فلن يطالك ملام.

٩

أما الجرى وراء الثروة فكان من الأفضل لو توقف مبكرا[٣]. فاملأ بيتك بالذهب والعقيق ولن يتمكن من حراسته أحد، ولو داومت على طرق السيف وشحذه، فلن يحتمل نصله طويلا، فاكتناز الثروة وتضخم الجاه لن يثمرا إلا الإحَن، وعندما تفرغ من عملك تقاعد، هذا هو طريق السماء.

٣- يشير هذا التعبير إلى الإناء الذى كان قائما فى معبد تشو، والذى كان يعتدل حال فراغه ويميل عند امتلائه، وربما كان القصد من إنشائه أن يكون رمزا شكليا لفضيلة التواضع اللازمة لمن يحتلون مناصب عليا.

١٠

عندما تحاول أن تماسك هل تستطيع الموازنة بين روحك وجسدك؟ وهل يمكنك أن تتعلق بالواحد بيديك؟ ولو أنك روضت أنفاسك لتكون مرنًا فهل أصبحت لِيّنا كالرضيع؟ وحين تصقل مرآة نفسك وتجلوها فهل تخلصت من كل أدرانها؟ وحين تحب شعبك وتحكم دولتك فهل يمكنك الاستغناء عن القوة الغاشمة؟ وعندما تُفتح أبواب السماء وتُغلق[٤] فهل بإمكانك أن تكون رحيمًا كالأم؟ ولو أنك وصلت بالاستنارة إلى آفاق المعرفة فهل يمكنك أن تظل خاملا لا مباليًا بالناس، فى حين أن فى معرفتك حياة وتربية لهم؟ علم شعبك وأطعمه دون أن تدعى امتلاكه، واعمل أعمالك دون أن تجنى ربحًا، كن قائدًا لا جزارًا، فذلك هو ‹الفضيلة الخفية›.

٤- وباب السماء عند تشوانج تسو هو البوابة اللامرئية التى تخرج منها الخلائق إلى الحياة ثم تعود إليها فى الموت، أو هو ‹اللاشىء› عندهم، وهو الغيب فى أديان التوحيد.

١١

ثلاثون ذراعًا تدور فى العجلة حول صُرَّة واحدة، ولـكن استخدام ‹الفراغ› الذى يتخلله محورها هو ما تعتمد عليه فائدة العربة، نصنع إناءً بقطعة من طين ولـكن ‹الفراغ› فى داخله هو ما تعتمد عليه فائدة الإناء، نجعل للغرفة أبوابًا ونوافذ ولـكن استخدام ‹الفراغ› فيهـا هو ما يجعل الغرفة صـالحة للحياة، ففى حين يكون للملموس مزاياه، فإن ‹الفراغ› غير الملموس هو ما يجعله مفيدا.

١٢

إن وهجًا من الألوان الخمسة يصيب العين بالعشى، وضجة من الأصوات الخمسة تصيب الأذن بالصمم، وفيضًا من المذاقات الخمسة يشل الحلق عن الذوق، ويصيب السباق والصيد العقل بالإثارة والجنون، ويؤدى حمل البضائع النادرة إلى إعاقة المسير، وعلى الحكيم أن يعنى بالبطون دون الظهور، فالأفضل أن يعتنى بما خفى من أن يهتم بما بدا.

١٣

إن كلًّا من الفضل والعار يصيب بالذهول، فالرتبة العالية لجسد المرء مصدر لأشد البلايا، تُذهِلُ المرء حين تأتى، ويُذهَلُ المرء حين تروح، «استقبل العار إذًا كما تستقبل مفاجأة سارة هى زوال العار!» و«استمتع بالمصائب كما لو كانت جسدك ذاته»، ذلك أن أجسادنا هى مصدر مصائبنا، فإذا لم يكن لنا أجساد، لما أصابتنا مصائب، ولا يؤتمن على الدنيا إلا الذى ينذر عمله قربانًا للطاو الخالد، وليس جديرًا بحكمها إلا الذى دفعه الحب إلى تسخير نفسه.

١٤

لن ترى ما لا يُرى فمن خصاله ‹الخفاء›، لن تسمع ما لا يُسمع فمن صفاته ‹الصمت›، لن تمسك بما لا يُلمس فمن طبيعته ‹الفراغ›، ولا تنفصل هذه الصفات الثلاث عن بعضها، فهى منصهرة فى واحد، أعلاه لا يبين وأسفله لا يخفى، وبالكاد يتبدى، ولكنه لا يتسمى، فهو الشكل اللامتشكل، وهو الصورة التى لا تحديد فيها ولا ظلال، فإذا قابلته لن ترى وجهه! وإذا تبعته لن ترى ظهره! ولو أنك عارف بالطاو السرمدى لأمكنك أن تقتنص حقائق الحاضر، فمعرفة طبيعة الأشياء هى التربية الروحية فى طريق الطاو.

١٥

كان الحكيم من قدماء العارفين على طريق الطاو يتميز بالغموض والمرونة والفهم، وكان عقله عميقًا لا يُسبر له قرار، ولكن يمكن أن نصف مظهره ارتجالا بلا تحديد، فهو مترددٌ كمن يعبر غديرًا فى الشتاء، هشٌّ كالجليد قبل أن يذوب، خشنٌ كحجر غُفل لم يصقل، خالٍ كوادٍ فارغ لم يُسكن، مضطربٌ كبركة معتكرة، ولكن من غيره يستطيع أن ينتقل ببطء وهدوء من العكارة إلى الصفاء؟ ومن غيره يستطيع أن يتحرك بتؤدة من السكينة إلى الحياة والحركة؟ فهو لا يرغب أن يمتلئ أبدًا كى يبقى برعمًا خفيًّا لا يتعجل النضج ولو كان خميصًا، لأنه سوف يُصاغ من جديد.

١٦

أحاول جهد الطاقة أن أفرغ ذاتى وأستمسك بسكينتى، أرقب كل الخلائق تمور ثم يعود كل إلى جذوره، والعودة إلى الجذور هى ‹السلام›، والسلام هو تحقيق المصير، والتمسك بالمصير هو الثبـات، ومعرفته هى البصيرة، ويل لمن يحاول ‹التجديد› بمحض إرادته حين يجهل الثوابت، ولو عرف المرء الثوابت فسوف يهتدى إلى فهم كل شىء واحتضـانه، ومن فهم كل شىء واحتضنه صـار عادلا، ومن كان عادلا أصبح نبيلا، ومن كان نبيلا صـار سماويًا، ومن صـار سماويًا توحد مع الطاو، ومن توحد مع الطاو صـار خالدًا، وعاش آمنًا متوحدًا حتى بعد أن يفنى جسده.

١٧

إن أسمى الحكام هو من لا يشعر الناس بوجوده إلا لماما، يليه مقامًا من يحبه الناس ويمتدحونه، ثم يأتي بعده من يخافونه ويرهبونه، ثم من يحتقرونه ويلاحونه، فلو ضعف إيمان المرء زال إخلاص الغير له، والحكيم منكر لذاته، مُقلٌّ من كلماته، حتى إن الناس يقولون بعد أن يفرغ من عمله وتكتمل كل الأشياء ‹ها نحن قد حققناها بأنفسنا!›.

١٨

حينما هجر الناس طريق الطاو لجئوا إلى الإنسانية والعدالة، وحينما ظهرت المهارة ظهر المنافقون، وحينما فقدت العلاقات بين الحدود الست[٥] توازنها ظهرت مشاعر الأبوَّة والبنوَّة، وعندما تفشى الظلام والفوضى فى المملكة ظهر الوزراء.

٥- العلاقات الست عند وانج بى، هى تلك التى تنشأ بين الأب والابن، وبين الأخوين الصغير والكبير، وبين الزوج والزوجة، وهذه تكوِّن ثلاث علاقات كل منها بين حدين، والأرجح أن اللغة والاصطلاح وتواتر الترجمة هى السبب فى الخلط، وقد ظهرت سداسيات كتاب التحولات والمصائر I Ching فى زمن ربما كان مزامنا لتاريخ الكتاب الحالى، والذى بدأ فى زمان لا تاريخى على يد الحكيم فو هسى ثم على يد الملك الحكيم وين ثم ابنه الدوق شو. ثم عمل عليها كونفوشيوس فى أواخر حياته وتبعه بعض تلامذته، ويتحدث الكتاب عن بنية سداسية للأسرة والمجتمع، هى الأب، والابن الأكبر، والبنت الكبرى، والابن الأصغر، والبنت الصغرى، والأم، مما يعنى وجود خمس وعشرين علاقة، وتنعكس العلاقات ذاتها على نطاق المجتمع وحدوده بين الحكيم والأمير والوزير والموظف والجندى والفلاح، وهو نظام طبق يغنى عن العقد الاجتماعى أو الدستور فى التعريف الحديث.

١٩

استبعد الحكمة وسوف تنفع الناس أكثر بمائة مرة، دع عنك الإنسانية واهجر العدالة وسوف يعود الناس إلى مشاعرهم الطبيعية، دع عنك الألمعية واترك المكاسب ولن يكون هناك لصوص ولا قطاع طرق، فتلك الأمور زخرف زائل لا يُغْني، فالناس بحاجة إلى ما يتعلقون به ألا وهو الاهتمام بالجوهرى البسيط والتعلق بالأولانى النقى وكبح رغبات النفس الأمارة.

٢٠

تخلص مما تعلمت ولن تصيبَك حيرة فى الفرق بين ‹نعم› و ‹لا›، ولا فى البعد بين ‹الخير› و ‹الشر›، وما إذا تعين على المرء أن يخاف مما يخافه الناس فيتهافت قبل أن يبلغ هدفه، فأيَّة متاهة فارغة تلك! يبدو الناس كمن يضجون فى وليمة على ذبائح أضحيات ويتسابقون صعودا إلى مشارف النبع، ولكنى وحيد فى سكينتى وسكونى كطفل لم يعرف كيف يبتسم بعد، وحيدٌ منبوذٌ بلا دار يعود إليها، كلٌّ عنده ما يكفى وزيادة وأبدو وحدى كما لو كنت معسرًا، مغفل أنا! ليس فى عقلى إلا صورة ممحوَّة، كلٌّ مشرق فى مرح وأنا وحدى كالح ساجٍ كالبحر، كرياح عالية لا تكف عن الهبوب، كلٌّ متفائل فى غياضه، وأنا وحدى لا غياض لى، لكنى مختلف عنهم فى أمرٍ واحد هو أننى أعلم كيف أغتذى من أمى الأرض.

٢١

إن الفاضل يتبع طريق الطاو الذى لا طريق غيره، ولكن ما هو الطاو؟ لو أننا نظرنا إليه كشىء موجود، لكان ضبابيًا ومراوغًا، مراوغًا وضبابيًا، ولكان فى قلبه صورة ضبابية ومراوغة، صورة معتمة مظلمة، يبطن فيها جوهر الحياة الحقيقى، وهو معيار يمكن تطبيقه، فقد عاش على الزمان غامضًا، حتى يستعيد منه بدايات كل شىء، فكيف للمرء أن يعلم طرائق كل الأشياء فى بداياتها إلا بما فى باطن نفسه؟ وهو طريق لتقدير حكمة فضلاء الأزمان الغابرة بمدى تشبههم به.

٢٢

انقُص ثم اكتمل، انحنِ ثم استقم، افرغ ثم امتلئ، اطعن فى السن ثم تجدد شبابًا، تقاض القليل واربح، تقاض الكثير واخسر، فالحكيم هو من يتمسك بالواحد فيصير مثالا للمملكة، يخفى نفسه فيظهر، لا يعتقد فى نفسه الصواب فيرتفع، لا يثرثر عن نفسه فيشتهر، لا يتحدث عن قدراته فيصمد، لا يصارع أحدًا فلا يصرعه أحد، وعندما قال الحكماء قديمًا «انقص ثم اكتمل»، لم يكن قولا بلا جدوى، فإنه يؤهل المرء ليصمد حتى النهاية.

٢٣

الكلام القليل هو الأمر الطبيعى، فالزوبعة لا تدوم صباحًا بكامله، ولا الأمطار تدوم يومًا بطوله، وإذا كانت تلك أعمال السماء والأرض ولا تدوم طويلا، فما بالك بدوام أعمال الإنسان الهوجاء، فالسالك فى الطريق يتبناه الطريق، والسالك فى الفضل يصبح الفضيلة، والسالك فى دروب السماء يصير قانون السماء، ونقص الإيمان فى نفسك يُبلى إخلاص الغير لك.

٢٤

من يمشى على أطراف أصابعه لن يستطيع أن يقف، ومن يُفرِّج ساقيه لن يستطيع أن يمشى، ومن تخايل بنفسه لن يلاحظ وجوده أحد، ومن يعتبر نفسه دائمًا على صواب جانَبَ الحق، ومن تباهى بقدرته لن يدوم، فهذه جميعًا «طعامٌ زائدٌ لا يغذى، وبرازٌ كثيرٌ لا ينفع»، والسالك لا يتعلق بهذه الأمور.

٢٥

كان هناك ما لا شكل له قبل مولد السماء والأرض، ساكنًا صامدًا ولكنه يتحرك فى كل شىء إلى الأبد ولا يمسه من لغوب، فهو القادر على خلق العالم، ولا علم لى باسمه، أراه دانيًا فأسميه ‹الطريق›، وأراه ‹هائلًا› فأسميه ‹العظيم›، يتعالى كى يبطن وينأى كى يقترب، لذا كان الطريق عظيمًا والسماء عظيمةً والأرض عظيمةً، والملك عظيمًا، فهو رابع العظماء فى الوجود، والإنسان يسير على مسالك الأرض، والأرض تسير على طرائق السماء، والسماء تسير على دروب الطاو، والطاو يسير على طبيعته السرمدية.

٢٦

الثقل أصل الخفة، والسكينة سيدة القلق، لذلك لا يغفل الفارس المرتحل طوال يومه عن عرباته المثقلة، ثم إنه يستكين فى بيته أو وراء أسوار حصنه فى سلام بعيدًا عن القلق، فلأى غرض يستعرض قائد ألف عربة خفة حركته، فالخفة زيغ عن الطريق، ومن خف فقد السيطرة على نفسه.

٢٧

أحسن السير ما لا يترك أثرًا، وأحسن الكلام ما لا يترك زلة، وأحسن الحساب ما كان بلا عدد، ومن يحسن إغلاق الأبواب لا يضع رتاجًا ولا فاتح لها، ومن يحسن رباط الأمتعة لا يعقد حبالا ولا أحد يحلها، يحسن الحكيم إنقاذ الأشياء فلا يضيع منها شيء، ويحسن إنقاذ النفوس فلا تضلُّ منها نفس، فهو يتبع ‹التمييز الباطنى›، والحكيم مثال يتعلم منه الغافل، ودهماء الناس مادة فى أيدى خيارهم، وخيار الناس أمناء على دهمائهم، وإذا لم نبجل معلِّمنا ولم نحب همومنا فذلك طريق الضلال، وهذا هو السر الجوهرى فى الطاو.

٢٨

اعرف قانون السماء والتزم بطرق الأرض، وكن غديرًا للمملكة تَنْسَبْ فى طريق الفضيلة بلا زلل، ولن تتخلى عنك الفضيلة فتعود إلى طفولتك، اعرف الأبيض والتزم الأسود ثم عد إلى سكينتك، اعرف الشريف ولازم الخسيس تصبح واديًا للمملكة، وتَسْرِ فى نعمة الفضيلةِ التالدةِ لتعودَ إلى البساطة الأولانيةِ ‹كحجر غفل›، وعندما ينقسم الحجر الغفل يصبح أوعيةً مفيدةً تصير فى يد الحكيم فرسانًا ومقدمين، فالخياط الماهر قليلا ما يقص.

٢٩

أليس هناك من يبغى امتلاك العالم ليفعل به ما يريد؟ أرى أنه لن يتأتى له النجاح! فالعالم وعاء مقدس لا يجوز العبث به ولا الجرى وراءه، فالعبث به يُفسده، والتمسك به يُفقده، وفى كل الأمور أوان للريادة وأوان لاتباع قيادة، أوان للشهيق وأوان للزفير، وأوان للنمو وأوان للضمور، وأوان على ظهر الأرض وأوان فى بطنها، لذلك تعين على الحكيم أن يجتنب كل تطرُّفٍ ويحذر كل تزيدٍ وتكلُّف وينأى عن الغرور.

٣٠

من يعاون الحاكم حسب تعاليم الطريق لا يُرهِبُ الأمة باستعراض الجيوش، فالسلاح يرتد على المسلح، وحيث تعسكر الجيوش ينبت الحسك، ولا يبقى فى أعقاب جيش عرم إلا سنوات عجاف، والطيب لا يبغى إلا إنهاء الحملة بلا تفاخر، ولا يرغب إلا فى ختامها بلا زهو، ويأسف لاضطراره إلى تجريدها، فالذى يؤذى أمة بالحرب يسلك عكس الطريق، ومن سلك عكس الطريق يئول إلى نهاية لا تسُر.

٣١

إن السالك على الطريق لا يحتمى بالأسلحة، فهى نذير شؤم لا يلجأ إليها النبيل، والنبيل هو من يلتزم اليسار فى داره ويلتزم اليمين فى الحرب، وحين يكون اللجوء إلى السلاح ضرورة فلا خير فى التوانى، وليس فى الانتصار مجد، ومن يتمجد به يعنى أنه يستمتع بقتل الناس، ومن يستمتع بقتل الناس لن يكون له فى المملكة شرف، واليسار هو الأنسب فى المناسبات السعيدة، واليمين هو الأنسب فى المناسبات الحزينة، فنائب القائد يقف إلى يمين الجنازة، فى حين يقف القائد إلى يسارها، وعندما يُقتل من الناس كثيرٌ، فمن الورع أن يحزن الجميع عليهم، ولذلك يجب أن تراعى طقوس الجنازة بعد النصر.

٣٢

إن الطاو لا اسم له من الأزل إلى الأبد، إلا أن ‹الحجر الغفل› يبدو صغيرا فى بساطته الأولانية، ولكن ليس فى العالم من يستطيع ادعاء انحيازه، وإذا سار الأمراء على طريقه خضع لهم الخلق من تلقاء أنفسهم، وسوف تتسق السماء والأرض، وتسقط قطرات الندى فى سلام ونقاء، ويعدلُ الناس فيما بينهم بلا قضاء، وحين تختلف الأهواءُ تظهرُ الأسماء، ويعلم المرء حينئذ متى يتوقف ليجتنب البلاء، فنسبة الطاو إلى العالم أشبه بالبحر إلى الغدير.

٣٣

من عرف الآخرين كان ماهرا، ومن عرف نفسه كان بصيرًا، ومن غلب غيره كان عنيفًا، ومن غلب نفسه كان قويًا، ومن عرف الرضا كان غنيًا، ومن تمسك بالطاو كان عفيفًا، ومن فى نفسه غرض كان مكتنزًا، ومن لم يفقد مكانته طال صموده، ومن لا تموت ذكراه بعد موته نال خلوده.

٣٤

الطاو طريق واسع مستقيم تعتمد عليه كل الخلائق، يطعم الـكل ويكسو الجميع ولا يطالب أحدًا بشيء، يكملُ أعماله ولا يدعى لنفسه فضلا، يكسو ويطعم الخلق ولا يدعى عليهم سيادة، ولأنه لا يدعى لنفسه العظمة أصبح عظيما.

٣٥

إن من يتمسك بتعاليم الطاو سيجتذب إليه المملكة، وسوف يجد فى كل شيء سلامًا وأمانًا وسعادة، وربما اجتذبت الموسيقى والطعام الفاخر ضيفًا عابرًا لبرهة قصيرة، ولكن كلمات الطاو دائمة الأثر، رغم تواضعها الذى لا يشنِّف السمع ولا يلفت النظر.

٣٦

لو كنت تبغى لشىء أن ينكمش فابدأ بشدِّه، ولو كنت تريد لشىء أن يضعف فابدأ بتقويته، وإذا كنت تشاء لشىء أن يهمل فابدأ بالاهتمام به، وإذا كنت تنوى أن تأخذ من شىء فابدأ بإعطائه، ويسمى ذلك ‹بالتمييز الدقيق›، فسوف يتغلب الوديع الضعيف بموجبه على الصلب القوى، ولا يصح أن تخرج السمكة من الأعماق، ولا ينبغى لآلتى القوة فى الدولة أن تظهرا لأحد[٦].

٦- ‹السمكة› رمز الحاكم، و ‹الأعماق› رمز القوة، و‹آلتا› القوة فى الدولة هما المكافأة والجزاء، ويجب ألا يظهر عليهما أحد، وإلا استحالت معرفة الكيفية التى ينفذان بها موردا للقوة التى تتغلب على الجدارة.

٣٧

إن الطاو لا يثير جلبة فى عمله لـكنه يكمل كل شيء كما ينبغى، ولو استطاع السادة والأمراء التمسك به فسوف يخضع لهم كل شيء من تلقاء ذاته، ولو امتلأت الرأس بالرغبات بعد أن ينمو كل شيء فعليك إفراغهـا ‹بحجر غُفل لم يصقل›، ألا وهو التحرر من الرغبة، ولو سكنت النفوس عن الرغبة فسوف تعيش المملـكة فى سلام من تلقاء ذاتها.

كتاب الفضيلة

٣٨

الفاضل الذى لا يتمسك بالفضيلة فاضلٌ حقًا، ومدعى الفضيلة يتمسك بها لأنه ليس فاضلا على الحقيقة، فالأول لا يبادر بالعمل ولكنه لا يترك أمرا دون أن يتمه، والأخير لا يفتر عن المبادرة بالعمل ولكنه يترك أعماله بلا اكتمال، والخيِّر ينهمك فى فعل الخير وليس فى نفسه غرض، ومدعى الخير مهموم بالخير لغرض فى نفسه، والموغل فى أداء الطقوس يعظ، وإذا لم يستجب له أحد شمر عن ساعديه ولجأ إلى الإقناع بالقوة، فحينما ضاع الطريق ظهرت الفضيلة، وحينما ضاعت الفضيلة ظهرت الاستقامة، وحينما ضاعت الاستقامة ظهرت الطقوس، والطقوس ستار لتهافت الولاء وحجاب لضعف الإيمان وبداية للفوضى، فالأفكار المسبقة زخرف جامد على الطريق، وتؤدى إلى الغفلة عن الحقيقة، والعاقل من تمسك بالجوهر دون المظهر، والثمرة دون الزهرة، والباطن دون الظاهر.

٣٩

من قديم الأزل كان كل شيء متوحِّدًا مع طبيعته الواحدة، فالسماء قد توحَّدت فخفَّت، والأرض قد توحَّدت فاستقرت، والملائكة قد توحَّدت بفضل الواحد فصارت قوى الأسرار، والينابيع قد توحَّدت ففاضت، والمخلوقات قد توحدت فعاشت في الحقيقة، وتوحَّد السادة والأمراء فصاروا حكامًا للعالم، وكلٌّ صار ذاته بموجب التوحُّد، فإذا لم تكن السماء خفيفة لتكسَّرت، وإذا لم تكن الأرض مستقرة لغارت، وإذا لم تكن الملائكة قوى للأسرار لكفت عن الوجود، وإذا لم تفض الينابيع لجفت، وإذا لم تتكاثر المخلوقات لدرست، وإذا لم يكن السادة والأمراء حكامًا للعالم لسقطوا، والحق أن التواضع هو جذور العظمة، ولا بد للمرتفع من أن ينبت من المنخفض، ولذلك سمى السادة والأمراء أنفسهم ‹بالعاجز› و ‹الصغير› و ‹الفقير›، وهذا بمثابة اتخاذ الأدنى كأساس للأسمى، ولذلك كان من يحقق أعلى الأمجاد بلا مجد، لا يرغب في أن يكون متميزًا كالعقيق بين الأحجار، ولا أن يكون نائيًا كصخور القمم.

٤٠

العودة إلى البداية هى حركة الطريق، والوداعة هى وسيلة الحركة، ولدت الخلائق جميعًا من مادة، وولدت تلك المـادة مما ليس مادة.

٤١

حينما يسمع التلميذ النجيب عن الطريق يتبعه بلا توانٍ، وحينما يسمع التلميذ المتوسط عن الطريق يؤمن به حينًا وحينًا يكفر، وحينما يسمع التلميذ البليد عن الطريق، يضحك هرجًا، وإذا لم يضحك البليد ما استحق الطريق أن يكون الطريق، وقد قال عنه حكماء الزمان القديم «يبدو له الطريق المنير ظلامًا، ويبدو له الطريق الممهد ركامًا، وتبدو له الفضيلة الحقة متاهة، ويرى البياض الناصع كالحًا، ويرى الفضيلة السابغة نقصًا، ويرى الفضيلة المنيعة هوانًا، ويرى الفضيلة المعتادة أدرانًا»، فالمربع الهائل لا تبدو أركانه، والإناء الضخم يمتلئ ببطء، والنغمة العظيمة لا تعيها الأذن، والصورة العظيمة لا تراها العين. ويحجب الطريق الطاو بمحو اسمه، ولكنه هو ما جلَّ عطاؤه واكتمل عمله.

٤٢

الطاو أنتج واحدًا، والواحد أنتج اثنين، والاثنان أنتجا ثلاثة، والثلاثة بدورهم ولدوا كل ما فى الوجود، وعند الموت يعود الجسد إلى الأرض، وتعود الروح إلى السماء، وكل مخلوق يحمل الين ‹أى الظلام والتصلب› على كاهله جبرًا، ويتمسك باليانج ‹أى النور واللطف› اختيارا، ويمتح تناغمه الحيوى من مزيجهما الصحيح، ولا يكره المرء أكثر من أن يكون ‹عاجزا› و‹صغيرا› و‹فقيرا›، ولكن هذه الصفات قد استحالت إلى أسماء للأمراء والسادة، والحق أن المرء يمكن أن يكسب بأن يخسر، ويمكن أن يخسر بأن يكسب، وها أنا أقول لكم ما قاله المعلم «إن العنيف سينتهى نهاية عنيفة»، ومن قال هذا اتخذته معلما وأبا.

٤٣

إن أكثر الأشياء لينا يجبُّ أكثر الأشياء صلابة، فما لا مادة له يتخلل ما لا مسام فيه، لذلك تعرف على مزايا ‹عدم الفعل›، فقليل مما تحت السماء يعلِّم كما يعلِّم الصمت، وقليل منه يفيد كما يفيد‹عدم الجلبة›، وفهم هذا أمر يفوق قدرة معظم الناس.

٤٤

أيهما أعز إلى قلبك اسمك أم جسدك؟ وأيهما أثمن فى نظرك جسدك أم مالك؟ وأيهما أكبر بلاء عليك المكسب أم الخسارة؟ ولهذا كان التزيد فى الوضاعة يؤدى إلى عواقب وخيمة، واكتناز المقتنيات يجلب خسارة جسيمة، وإذا عرف المرء القناعة تحصن من العار، وإذا عرف متى يتوقف احتمى من المخاطر واستقر فى الحياة طويلا.

٤٥

إن أعظم الكمال يبدو ناقصًا ولكنه لا ينفد مهما أُنفق منه، وغاية الامتلاء تبدو فارغة ولكنها لا تنتهى مهما نهلت منها، وشدة الاستقامة تبدو اعوجاجًا، وغاية المهارة تبدو غباء، وأبلغ الفصاحة تبدو ثأثأة، ولكن النشاط يغلب البرد والسكينة تغلب الحر، والسلام والوداعة هما عدة القائد فى حكم المملكة.

٤٦

حينما يسود الطاو الدنيا، تحرث خيل الحرب الحقول، وحينما تُحرم الدنيا من الطاو ترعى خيل الحرب فى الزراعة، وليس هناك مصيبة أكبر من شدة الرغبة، وليس هناك شر أكبر من عدم القناعة، وليس هناك سوء طالع أشد من الطمع، ولن يكتفى إلا من كان يعرف الرضا.

٤٧

يمكنك أن تعرف العالم دون ارتحال، ويمكنك أن ترى طريق السماء دون أن تنظر من نافذتك، وكلما ارتحلت وحملقت، قلَّت معرفتك، فالحكيم يعرف دون سفر، ويرى دون نظر وينجز أعماله بلا جلبة.

٤٨

إن التعلم هو أن يعرف المرء أكثر يومًا بعد يوم، واتباع الطاو هو أن يتخلى عن الأعمال شيئًا فشيئًا حتى لا يفعل شيئًا على الإطلاق، وحين لا يفعل المرء شيئًا، فليس هناك ما لم يكتمل، إن عدم التدخل هو دائمًا ما يقيم الملك، وإذا تدخل المرء فى الأمور لأغراض خاصة، فليس جديرًا بإقامة المملكة.

٤٩

ليس للحكيم مصلحة تخصه، فإن مصالح الناس مصلحته، يعطف على العطوف كما يعطف على القاسى، ويُخلِصُ للمخلِصِ كما يُخلص للخئون، فالفضيلة هى الإخلاص، والفاضل خجول منكر لذاته فى عالم وقح، يحفظ نفسه فى سديمية من أجل العالم، كل الناس تفتح العيون وترهف الآذان، والحكيم فقط يبتسم كرضيع مندهش.

٥٠

عندما يخرج المرء من الحياة يدخل إلى الموت، فإذا كان رفاق المرء فى الحياة ثلاثة من كل عشرة، فرفاقه فى الموت ثلاثة من كل عشرة، وحين يسرى فى عالم الموت، يكون رفاقه أيضًا ثلاثة من كل عشرة، فكيف كان ذلك؟ ذلك لأنه يعتمد على عادات حياته بإصرار بالغ حتى بعد تركِها، ويقال إن من يعرف كيف يعيش حقًّا لن يلقى فى طريقه نمورًا ولا ثيرانًا، وسيخرج من ميدان القتال سالمًا لم يمسسه سوء، فلا الثور واجد فيه موضعًا لنطحه، ولا النمر واجد فيه مادة لمخالبه، ولا عدة الحرب واجدة فيه ما يُطعن، فكيف كان ذلك؟ ذلك لأنه لا محل فيه للموت.

٥١

كل ما فى الكون بلا استثناء يعبد الطاو ويجل الفضيلة، فقد شكلتهم المادة ووهبهم الطاو الحياة وربتهم الفضيلة، وجعلتهم الطبيعة كاملين، ولكن المخلوقات لم تؤمر بعبادة الطاو ولا إجلال الفضيلة، بل تفعل ذلك تلقائيًّا، فلا مراء أن الطاو قد وهبها الحياة، وأن الفضيلة قد أرضعتها وغذتها ورعتها وحمتها تحت جناحها، وأن توهب الحياة بلا مقابل، وأن يعمل الطاو عمله دون أن يتقاضى شيئًا، وأن يكون قائدًا هاديًا لا جزارًا، تلك هى ‹الفضيلة الخفية›.

٥٢

كل ما تحت السماء بدأ من بداية واحدة هى أم العالم، وعندما نعرف الأم يمكن أن ننكب على معرفة أبنائها، وعندما نعرف الأبناء، يمكن أن نعود لنتعلق بالأم، ولو عدنا إلى الأم لتجنبنا المخاطر حتى لو فنى جسدنا، فأغلق كل الطرقات ولن يصيبك كَبَدٌ حتى آخر حياتك، افتح الطرقات وضاعف أعمالك، وسوف تبقى معوقًا طيلة حياتك، فأن يرى المرء دقائق الأشياء يعنى أن يكون رائيًا، والتعلق بالضعف يعنى أن يكون قويًا، استخدم النور لترى الظاهر، ولكن عد إلى ظلالك لترى الخفى، ولا تجلب المصائب على نفسك، وهذه طريق ‹رعاية ما لا يتحول›.

٥٣

لو أنني احتكمت على مقدار خردلة من حكمة لسرت في الطريق العظيم، ولكان همي الوحيد هو ألا أحيد عنه، والطريق العظيم مستقيم وممهد، إلا أن الناس يفضلون السبل المعوَجَّة. إن أبهاء البلاط ناصعة النظافة رائعة الرياش، لكن الحقول قاحلة أعشبتها الحشائش! والحواصل فارغة هجرتها الفئران! يلبسون لباسًا فاخرًا ويحملون سيوفًا ماضية ويتخمون أنفسهم بالطعام والشراب، ويمتلكون ثروات أكثر مما يستطيعون إنفاقه! وهم من يدعون اللصوص لسرقتهم، أما الطاو، فماذا يعرفون عنه؟

٥٤

ما حَسُنَ زرعه يصعب اقتلاعه، وما حَسُنَ اعتناقه يصعب ضياعه، وسوف يستمر نسلك فى تقديم قرابين الأسلاف طوال أجيال لا تنتهى. ازرع فى شخصك الفضيلة وسوف تصير الفضيلة جزءًا منك، وازرعها فى أسرتك وسوف تكفى وتزيد، وازرعها فى قومك وسوف تعيش وتزهر، وازرعها فى دولتك وسوف تفيض وتثمر، وازرعها فى العالم وسوف تعم العالم، ولذلك تعين أن تعرف الشخص من ذاته، والأسرة من ذاتها، والقوم من ذاتهم، والدولة من ذاتها، ولكن كيف يتأتى للمرء أن يعرف العالم؟ يعرفه بموجب ما فى داخله.

٥٥

كلما أمعن الحكيم فى الحكمة صار أشبه بطفل وليد، لا يلسعه زنبور، ولا تلدغه حية، ولا يهاجمه وحش كاسر، ولا ينوشه طير جارح، ليّن العظام طرى الأوتار ولكن قبضته مكينة، فهو ينمو فى أوج نشاطه، يصرخ طوال يومه ولا يبح صوته، ذلك لأنه يعيش فى تناسق تام، ومعرفة التناسق هى معرفة الدائم، ومعرفة الدائم تعنى التمييز، واستعجال النمو فى الحياة نذير خطر، فأن يجور العقل على التنفس عنوة هو أمر عنيف، وأن يؤذى امرؤ فى عنفوانه مسنًّا فى شيخوخته، هو نقيض للطريق، ومن يسر على عكس الطريق يلق نهاية قريبة.

٥٦

من يعرف الفضيلة لا يتكلم عنها، ومن يتكلم عنها لا يعرفها، فأغلق المنافذ، وأوصد الأبواب، واثلمِ الحدة، وحلَّ العقد، واخفت الأضواء، وسر على طرق الفضيلة القديمة، ويُعرف ذلك ‹بسر المشاكلة›، ولذلك لن تتمكن من الاقتراب منها بالكلام، ولن تستطيع الحفاظ عليها في متناولك بالكلام، ولن تقدر على إضفاء قيمة عليها بالكلام، ولن يمكنك أن تبخسها فضلا، ولا أن تسبغ عليها نبلًا، ولن تحط لها قدرًا، ولهذا تشيد بها المملكة.

٥٧

احكم الدولة بالاستقامة، وشن الحرب بالمكر، ولكن اكسب المملكة بالامتناع عن التدخل، وكيف يعرف المرء أن الأمور تسير على هذا المنوال؟ كلما زادت المحرمات فى المملكة زاد الفقر، وكلما زادت أدوات العدوان فى أيدى الناس، أظلم عقل الدولة، وكلما زادت مهارة الناس، زادت البدع فى المملكة، وكلما كثرت القوانين والأوامر زاد اللصوص وقطاع الطرق. ولذلك قال الحكيم إنه لا يفعل شيئًا فيعتدل الناس من تلقاء أنفسهم، يُفضل السكون فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم، لا يتدخل فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم، يتحرر من الرغبة فيصير الناس بسطاء من تلقاء أنفسهم ‹كحجر غُفل›.

٥٨

حين تكون الدولة بسيطة يصبح الناس بسطاء، وحين تكون داهية يصبح الناس خبثاء، فحسن الطالع قابع على المصائب، والمصائب ترقد تحت حسن الطالع، فمن ذا الذى يعرف الحدود؟ أليس هناك أناس مستقيمون على الطريق؟ إلا أن الاستقامة الظاهرية تحول إلى اعوجاج، وتستحيل الوداعة المفتعلة إلى شراسة، والحق أن الناس قد تحيروا منذ زمان طويل، ولذلك كان الحكيم حادًّا ولكنه لا يخدش، ومدببًا ولكنه لا ينخس، ومتوسعًا ولكن ليس على حساب الآخرين، ولامعًا ولكنه لا يبهر.

٥٩

لو كان الحاكم مخلصًا للسماء فى حكم شعبه فلا بد أن يكون مدبرًا، ومن حُسنِ التدبير أن يتراجع قبل أن يضل، وإذا كان سائرًا على طريق الفضيلة منذ البداية تحلى بالفضيلة فى تدبير كل الأمور، وإذا كان قادرًا على تدبير كل الأمور فلن يعرف مداه أحد، وإذا لم يعرف مداه أحد استطاع أن يصل إلى منبع المُلك، ومن يصل إلى منبع الملك طال صموده، وهذا هو طريق ‹الجذور العميقة والسيقان السامقة› التى يطول أجلها.

٦٠

إن حكم إمبراطورية شاسعة أشبه بطبخ سمكة صغيرة، فحين نحكم الإمبراطورية بمقتضى الطريق تفقد الأرواح الخبيثة سيطرتها، أو هي بالأحرى تمتنع عن أذى الناس، والحكيم لا يؤذى قومه وقومه لا يؤذون بعضهم بعضًا، وحيث إن كليهما لا يؤذى أسند كل منهما الفضل إلى الآخر.

٦١

المملكة الشاسعة هى مصب النهر الذى اجتمعت فيه كل الجداول، وصارت أمًّا لكل ما تحت السماء، وعند اتحاد السماء بالأرض تنتصر الأم بالخضوع والتواضع، فالدولة الصغرى تلتحق بالكبرى بالتواضع لها، والدولة الكبرى تعطف على الصغرى بالانحناء لها وتأخذها تحت جناحها.

٦٢

الطريق هو ملجأ لكل المخلوقات، وهو الحصن الذى يوفره النبيل ليحتمى فيه الوضيع، فالكلم الطيب يكسب القلوب، والعمل الصالح يرفع المقام، وعندما يتوَّج الإمبراطور ويختار وزراءه الثلاثة، فمن كانت هداياه هى الإشارة إلى الطريق دون أن يترك مكانه أفضل ممن كانت هداياه أقراصًا من العقيق يتبعها غارة بالخيل. فلماذا كان الطريق مبجلا من قديم الأزل؟ ذلك لأنه يُعلم الناس كيف يحققون أغراضهم بالقسط، ويتجنبون أخطاءهم بالحذر.

٦٣

اعمل ما لا يلزمه عمل، واتبع ما لا يتطلب عدوانًا، وتذوق ما ليس له طعم، اجعل مما صغر كبيرًا، ومما قل كثيرًا، وافعل الخير فيمن فعل بك الشر، وتحسَّب لإنجاز الصعب قبل أن يصعب، واصنع الضخم من بداية صغيرة، فالأمور الصعبة لا بد لها من بداية سهلة، والأمور الجسيمة لا بد لها من بداية بسيطة، ولذلك كان الحكيم عظيمًا لأنه لم يستهدف العظمة، ومن تهور فى الوعود نادرًا ما يوفى بها، وغالبًا ما يكسب عداوة بلا سبب، ومن اعتاد سهولة المسائل وقع فى أسر المصاعب، والحكيم هو الذى يعالج بسائط الأمور باعتبارها عويصة، ولذلك لا تنتصر عليه المصاعب.

٦٤

من السهل التحكم فى موقف قبل أن يستفحل وتظهر مشاكله، فكسرُ ما ضعف هين، وإذابةُ ما دق بسيط، فتعامل مع الشيء قبل بدايته عندما يكاد ألا يكون شيئًا، وحافظ عليه فى نظام قبل أن يتحول إلى فوضى، فالشجرة السامقة التى لا يحيط بها الذراعان تبدأ برعمًا صغيرًا، والشرفات ذوات الأدوار التسعة تقوم على أرض منبسطة، ورحلة الألف ميل تبدأ من موضع القدم، ومن حاول أن يصنع شيئًا سيدمره، ومن حاول أن يمسك بشيء سيفقده، ولذلك لا يدمر الحكيم شيئًا لأنه لا يصنع شيئًا، ولا يفقد شيئًا لأنه لا يحاول أن يمسك بشيء، والناس يدمرون أعمالهم دائمًا وهم على وشك إنجازها، وما خَرِبَ لن يقوم، والحكيم يرغب فى ألا يرغب، ولا يقيم وزنًا للمقتنيات الثمينة، ويتعلم ألا يتعلم، ويصلح أخطاء الدهماء حتى يعين الخلق على العودة إلى طبيعتهم والإحجام عن الجرأة فى أعمالهم.

٦٥

إن الحكماء الذين برعوا فى الطريق لم يعملوا على تنوير الناس بل عمدوا إلى تضليلهم، فصعوبة حكم الناس راجعة إلى حذق الحكام، وحكم الدولة بالحاذقين سوف يعود عليها بالخسارة، وحكمها بلا حذق سيعود عليها بالنفع، وهذه المثالات من أسرارية الفضيلة، فأسرارية الفضيلة عميقة المغزى بعيدة المقاصد، ولكن حين تنعكس الأمور فإنها تنعكس معها، وحينئذ فحسب، يتحقق الاتساق التام.

٦٦

لقد صار النهر والبحر ملكين على الوديان المائة لأنهما امتازا بالانخفاض، فمن يرغب فى حكم الناس عليه أن يتواضع لهم فى دخيلة نفسه، ومن أراد أن يقود الناس اتبعهم فى باطنه، فيتولى الحكيم على الناس دون أن يثقل كاهلهم، ويقودهم دون أن يعوق مسيرتهم، ولذلك تسانده المملكة بفرح غامر، وليس فى المملكة من يصارعه لأنه لا يصارع أحدا.

٦٧

الناس كلهم يقولون إن طريقى شاسع وليس كمثله شىء، وهو شاسع لأنه ليس من شىء مثله، ولو كان مثله شىء لصار دربًا هزيلا، إننى أحتكم على كنوز ثلاثة أولها يعرفه الناس بصفة ‹الرحمة›، ويعرفون الثانى باسم ‹التدبير›، ويعرفون أن الثالث هو ‹الإحجام› عن المبادرة بقيادة المملكة، فالرحمة تجعل المرء شجاعًا، والتدبير يمكِّن المرء من التوسع بلا صراع، والإحجام عن قيادة المملكة يجعله قائدًا للأسطول، إلا أن ترك الرحمة من أجل الشجاعة، أو ترك التدبير بغرض التوسع، أو ترك الاتباع من أجل القيادة، لا بد أن ينتهى بكارثة، فالرحمة نصر فى الهجوم ومنعة فى الدفاع، وما تحفظه السماء تحميه بمنة الرحمة.

٦٨

الذى يمتاز فى الحرب لا يبدو مرعبًا، والذى يمتاز فى المصارعة لا ينتابه الغضب، والذى يمتاز فى هزيمة أعدائه لا يخلط الأمور، ومن يمتاز فى استخدام الغير يتواضع معهم، وتعرف هذه بفضيلة ‹عدم الصراع›، حتى يمكن الاستفادة من عمل الآخرين، وهذا هو اتباع مثال ‹ تعالى السماء›.

٦٩

يقول الذى يخطط للمدى البعيد «إننى لا أجرؤ على لعب دور المضيف ولكننى أبادر بلعب دور الضيف، ولا أجرؤ أن أتقدم شبرًا ولكننى أبادر بالتراجع خطوة»، ويعرف ذلك بالتقدم حين لا يوجد طريق، وتشمير الأكمام حين لا يوجد ذراع، والاستعداد بالسلاح عندما لا يكون هناك سلاح، وليس هناك كارثة أكبر من الاستهانة بالعدو، فذلك يعنى ضياع الكنز، وحين يسُل محاربان سيفيهما كل فى وجه الآخر، فإن الذى ينتصر هو الذى يشعر بالأسف فى قرارة نفسه.

٧٠

إن كلماتى سهلة الفهم وتعاليمى سهلة التنفيذ، ولكن ليس فى العالم من يستطيع أن يفهمها ولا من يملك أن يعمل بها، فالكلمات لها أصول، والأعمال لها معلمون، والناس لا يفهموننى لأنهم يجهلون الأصول ولا يعرفون المعلمين، وقليل من يفهم القول، وقليل من يعرف العمل، ومن استطاع أن يحذو حذوى نال الشرف، والحكيم هو من يرتدى رداءً متواضعًا، ولكنه يحمل فى دخيلته جوهرة من العقيق.

٧١

من الأفضل أن يعرف المرء ثم يعرف أنه لا يعرف، ومن الأسوإ ألا يعرف المرء ثم يزعم أنه يعرف، فالوعى بالمصاعب يؤدى إلى اجتنابها، والحكيم لا يواجه صعابًا لأنه عارف بها.

٧٢

حينما يفتقد الناس تناسب الإحساس بالخوف فسوف يحل عليهم الخوف كالصاعقة، فلا تضيّق عليهم براح سكنهم، ولا تقتر عليهم فى معاشهم، فحينما لا تجور عليهم ولا تبخل فلن يشعروا بالإرهاق من كدح العمل، والحكيم هو من يعرف ذاته ولكنه لا يتخايل بنفسه، ويحب ذاته ولكنه لا يغتر بنفسه، ولذلك كان عليه أن يتخلص من نفسه ويتمسك بذاته.

٧٣

من لا يخاف فى شجاعته سيموت، ومن لا يخاف فى وداعته سيعيش، فالسماء تكره ما تكره، فمن يعرف السبب؟ ذلك أن الحكيم هو من يعالج الأمور البسيطة باعتبارها عويصة، فطريق السماء يمتاز فى تخطى المصاعب دون صراع، وفى الاستجابة دون كلمات، وفى التلبية دون نداء. وبالرغم من أنها تبدو وئيدة الخُطا لكن شبكة السماء شاسعة، ورغم ثقوبها الواسعة فلن يفلت منها شىء.

٧٤

حينما لا يخشى الناس الموت فلن يخيفهم أحد بالموت، ولو خافوا الموت لجمَعْتُ الهراطقة وحكمت عليهم بالموت، فمن ذا الذى سيجرؤ على الهرطقة؟ فهناك جلاد وظيفته القتل، والقتل من أجل أن يعمل الجلاد مثل قطع الأشجار من أجل أن يعمل النجار، وقليل من لن تُقطَعَ يده.

٧٥

لقد جاع الناس لأن الذين يحكمونهم يأكلون طعامهم بالجور فى الجباية، وحكم الناس صعب، لأن الذين يحكمونهم مغرمون بالاشتغال، ويستخف الناس بالموت لأن هناك من يعولون كثيرًا على الحياة، ومن لا حاجة به إلى العيش أحكم ممن تمسك بالدنيا.

٧٦

إن الحى طرى ضعيف فى حياته والميت متخشب جامد فى مماته، والحشائش والأشجار رخوة غضة فى حياتها جافة صلبة فى مماتها، لذلك كانت الصلابة قرينة الموت والطراوة قرينة الحياة، فالسلاح الصلب لا يهزم الفارس المرن، والشجرة الجافة من نصيبها الفأس، والضخم القوى ينتهى أسيفًا، واللين الضعيف يدوم عفيفا.

٧٧

أليست طريق السماء شبيهة بِثُقُفِ القوس؟ تضعف القوى وتقوى الضعيف، وتزيل الزائد وتزيد الناقص، أما طريق الإنسان فعلى العكس، يأخذ من المحتاج ليعطى المكتنز، فمن ذا الذى يعطى ما زاد عنده لمن يحتاج فى المملكة؟ ليس سوى من يعرف الطريق، ذلك الذى ينجز أعماله ولا يدعى استحقاقًا، فإنه لا يريد أن يكون أثرى من غيره.

٧٨

ليس فى العالم ما هو أكثر ضعفًا ولا أشد خضوعًا من المـاء، إلا أنه ليس كمثله شىء فى نحر الصلب، وليس هناك ما يقوم مقامه، وكل الناس تعلم أن الضعيف يغلب القوى، واللين يغلب الصلب، ولـكن لا يستطيع أحد أن يضع ذلك موضع التنفيذ، ولذلك قـال الحكيم إن الذى يـأخذ على عـاتقه هوان الحكم كان حاكمًا جديرًا بتقديم الأضاحى للسماء والأضرحة[٧]، ومن يأخذ على عاتقه مصائب المُلك كان ملـكًا جديرًا بحكم المملكة، والـكلمات المستقيمة تبدو متناقضة.

٧- كان لـكل ولاية فى الصين أضرحتهـا التى تقام لملائكتهـا الأرضية والسماوية، وتبقى الولاية مستقلة طالمـا استطاع الحاكم تزويد تلك الأضرحة باحتياجاتها.

٧٩

حينما ينعقد السلام بين عدوين عظيمين لا بد أن تبقى بينهما عداوة ما، فكيف يتأتى للصلح أن يكون كاملا؟ ولذلك يختار الحكيم أن يكون دائنًا دون أن يطالب بالوفاء بالدين، فالفاضل يسوى الدين والفاجر يتولى الجباية، إن طريق السماء هو عدم الانحياز، ودائمًا ما كانت السماء إلى جانب الرجل الشريف.

٨٠

قلل من مساحة الولاية وسكانها، واعمل على أن يكون هناك عدة حرب تكفى فرقة، ولكنها لن تستخدم، واعمل على أن يتراخوا عن الأسفار البعيدة، لأنهم تعودوا ألا ينظروا إلى الموت كأمر هين، فحتى لو امتلكوا سفنا وعربات، فلن يكون فيها نفع لهم، ولو كان لديهم دروع وأسلحة، فلن يكون لديهم سبب لإعمالها، وانشر بينهم أن الناس سيعودون إلى استخدام ‹الحبال المعقدة›، وسوف يجدون لذة فى طعامهم، وجمالا فى أرديتهم، وتَقَرُّ رغباتهم فى مكامنها، ويسعدون فى طرائق حياتهم، وبالرغم من أن الولايات المجاورة على مرمى البصر، ويسمع منها نباح الكلاب وصياح الديوك، ولكن مواطنى ولايتك سوف يعيشون طويلا دون أن يضطروا للتعامل مع مواطنى ولاية أخرى.

٨١

الكلمات التى تقول الحق ليست جميلة، والكلمات الجميلة لا تقول الحق، والكلمات الطيبة لا تقنع، والكلمات التى تقنع ليست طيبة، ومن يعرف لم يتعلم الكثير، ومن تعلم الكثير لا يعرف. والحكيم لا يكتنز، فقد أنفق ما لديه على الآخرين، وبالرغم من أنه أنفق ما لديه، فما زال هو الأغنى، فطريق السماء يغنى ويثمر، وطريق الحكيم عامر بالنعم، فهو لا يدخل فى صراع مع أحد.

© تراث واحد ١٤٣٧هـ

onetradition.org

Printed in Korea by Yon Art Printing

TRADIGITAL STUTTGART
Silberburgstrasse 126
70176 Stuttgart • Germany
Tel. +49 (0)711 / 6 69 78 14
Fax +49 (0)711 / 6 69 78 24
www.tradigital-stuttgart.com
mail@tradigital-stuttgart.com

TRADIGITAL

تراديجيتال القاهرة
٢١ شارع مصر حلوان الزراعى
المعادى • القاهرة • مصر
هاتف : ١٧٦٤ ٢٣٨٠ ٢ (٠) ٢٠+
فاكس : ٢١٧١ ٢٣٨٠ ٢ (٠) ٢٠+
www.tradigital-cairo.com
mail@tradigital-cairo.com